شاعر الحب والفلوات

ذو الرُّمّة

محمود محمد شاكر

— ٢ —

« هذا والله مُلهَمٌ ! وما عِلْمُ بدويٍّ بدقائق الفطنة وذخائر العقل المعدّة لذوي الألباب ؟ لله بلادُ هذا الغلام ! ما أحسن قولَهُ ، وما أجود وصفه ! »

الكميت بن زيد الاسدي الشاعر

غلامٌ يتيمٌ عبقريُّ الطبيعة ، مشتعل العقل ، ثائر العاطفة ، نابض الأعصاب ، لطيف الحس ، ذكيُّ القلب ، وَرِعُ النفس ، جيّاش الخيال : يرى ، أو يسمع ، أو يتوهّم ، فيهتز كيانه من أعماقه هزة خاطفة ، كأنهُ قوسٌ موتّرة ينبض بها مشبوح الذراعين شديد النزع . بعث اليتم في دمه حرارة التحفّز ، وسعّر في روحه ضرام الحياة المتوهجة ، وسلبهُ سكينة القلب الغرير الناشئ ، فهو أبداً قلقٌ متنزّع ، كأنما يعارضهُ — حيثما توجه — شبح يتخيل لهُ في صور تروّعهُ وتهولهُ

ويقوم على تثقيف هذا الغلام اليتيم وتهذيبه ، رجلٌ من عقلاء الرجال ، وشاعرٌ مُقلّ من شعراء بني عدي بن عبد مناة ، ثم هو أخوه الأكبر : « هشام بن عقبة » . يشفق هشام على يتيمه « غيلان » ، فيحوطهُ بقلبٍ متودّد ، ويعطف عليه بنفس صادقة ، فتشتد قوى الودّ بين الغلام اليتيم وأخيه الذي ربّاه ، وبذلك يكتسب « الطفل » من عقل « الرجل » وذكائه وتجربته ، عقلاً وذكاءً وتجربة ، حتى تنشق طفولته عن رجولة مبكرة . ولا يزال الغلام ينشأ في سر البادية العربية الخالدة التي لا تكادُ تتغير ، وفي جوّ الشعر العربي من أقدم عصوره إلى أيام شبابه [في أواخر القرن الأول من الهجرة من سنة ٧٧ — ٩٧] ، وبين إخوة وأخوال من شعراء البادية ، وبين رواة قد حفظوا شعر قومهم وغير قومهم . لا يزال الغلام ينمو على الأيام في ذلك كله ، حتى يمشي في بادية قومه « بني عديّ » بروح ثائرة متمرّدة عاتية ، تكافح طغيان البادية لتظفر بأسرارها المكتتمة . ينظر ، وفي عينيه تلك اللمعة الحديدة النافذة التي لا تدع شيئاً إلا تعلقت فيه أو أحاطت به . لينال الخيالُ غذاءه

مما يرى . يصغي ، وفي أذنيه تلك الحاسة الدقيقة التي لا تذر نغمة إلاّ اختطفتها ، ليأخذ الشعور الرقيق حظّه مما يسمع

ويومض في قلب الغلام ذلك الضوء المتلاحق المتدارك الذي يضيء لعينيه دنيا جديدة ثم يخبو ، ليعود فيبحث عنها في الظلام ليجدها مرة أخرى . هنا ، ثم ههنا ، ثم هناك !!! أين ضلّت عنه ؟ كيف ذهبت ؟ لماذا اختفت ؟ ما الذي رأى ؟ ويهبّ الفتى لليقظة ، يريد أن يجدها ، ولا بدّ له من أن يجدها . وفي سر البادية العربية الخالدة ، وفي جو الشعر العربيّ الخالد ، يدبّ الفتى اليتيم الصغير بين إخوته وأخوال من الشعراء ورواة للشعر يتناشدونه في أسمارهم تحت هداة الليل التي تموج فيها النفس الانسانية موّجَها . يصغي الفتى ويحفظ ، ويخفق قلبه بين جنبيه على نغم حلو حبيب تتردّد أصداؤه في أرجاء روحه ، حين ينقلب إلى مضجعه . ولا تزال ترنّ في أذنيه تلك الأصداء مع الفجر إذا تنفّس

ولم تزل البادية في عصر هذا الفتى تردّد أنغامها إيقاعاً عجباً من ألفاظ اللغة ، في شعر امرىء القيس فحل الجاهلية ، ولبيد ، وطرفة ، وعنترة ، والأعشى ، والنابغة . ولكنّ الفتى يتسمع إلى ذلك الحنين الخفيّ في نغم امرىء القيس وطرفة بن العبد . ما هذه القوة المتدفقة من تحت الألفاظ ، تعطيها الحياةَ فتحيي ، لتغالب الدهور الفنيةَ المبيدةَ للحياة ؟ وما هذه الصورة المثلة التي تحبّب البادية إلى قلبه حبًّا لا ييأس ولا يفتُر ؟ كيف استطاع هؤلاء أن ينفذوا في الغامض الملتبس ليبعثوه في كلامهم بيّناً سهلاً يكاد يمشي ويتحرّك ؟! ثم تتلقّف مسامعه تلك الأنغام الجديدة التي تقذفها حواضر الحجاز والشام إلى بوادي نجد : عمر بن أبي ربيعة ، العرجيّ ، الأحوص ، عبد الله بن قيس الرُّقيات !! هذا الترفُ الجميل الذي يعبث بالحب ويعبث الحب به . نساء يتفتّن على ألسنة هؤلاء سحر الغزل وفتنة الأحاديث . ويناظر الفتى — الذي صورته البادية ، ثم صاغتْه ، ثم نفخت فيه — بين هؤلاء ، وبين امرىء القيس وطرفة ومن إليهما من فتيان الجاهلية وفتّاكهم وأصحاب اللهو منهم . ولكن شعر المعاصرين يقبل على قلبه وعقله بنضارته ولينه وترفه ، ثم ينفذ فيهما بسطوته ، سطوة الجديد المتحكم . تمنى الفتى أن يرقّ رقة هؤلاء الغزلين ، إن في روحه سرًّا يتحرّك ، إنه يريد أن يقول . ويتبع عين « الفتان البدويّ » أوانس البادية ، كما تتبعت عيون الشعراء المعاصرين أوانس الحاضرة في الشام والحجاز ، ولكنه لا يستطيع أن يقول كالذي قالوا .

إن قلبه لا يزال معلقاً على قدَره الذي سجين وقد قارب . وتجيش أمواج الشعر في صدره لتكون إرهاصاً للقدر المجلَّب عليه من بعيد أو قريب . فيعالج بداوته التي حكته وأنشأته بتقليد الرقة التي يتشعرها من فنّ الشعراء الفتيان المعاصرين ، وينظر إلى ابن أبي ربيعة الذي فتن نساء عصره ، يريد أن يكون كمثله ترفاً وغزلاً وحديثاً ، وهيهات ! إنه سرّ

البادية العربية ، وابن أبي ربيعة سر الحاضرة العربية ، ولكنه سيقول على نهجه غير متلبث ، إلى أن تنتفض روحه انتفاضتها : شاعرة مبينة متحدثة على سجيتها . فماذا يقول ؟ :

أطاوع من يدعو الى رَيِّق الصبا وأترك من يَقْلَى الصبا لا أُوامره
وسِرْبٍ كأمثال المهاة قد رأيته «بوهْـبين» حورُ الطرف بيضٌ مَحاجره
إذا ما الفتى يوماً رآهن ، لم يزل من الوجد كالماشي بداءٍ يخامره
يُرين أخا الشوق ابتساماً كأنه سنا البرق في عُرْف له جاد ماطره(١)
فجئت وقد أيقنت أن ستقيد لي وقد طار قلبي من عدوٍّ أحاذره
فقالت : بأهلي ! لا تخف ! إن أهلنا هجوعٌ ، وإن الماء قد نام سامره

فأين البادية ، وأين ابن البادية في هذا الشعر ؟ لقد ضاع ابن البادية ولم يبق له من بداوته إلا قوله : « وإن الماء قد نام سامره » ؛ فإن أهل الحواضر لا يقولون ذلك ، وإنما هذا كلام الذين ينتجعون الغيث في البوادي ، وينزلون على الماء في الفيافي الغامرة . وأما أهل الحضر فيقولون : « إن الحيّ قد نام » ، وينسون الماء لقلة افتقادهم إياه في الحاضرة ، أو يقولون كما قال عمر بن أبي ربيعة :

فما رِمْتُها حتى دخلت خفاءة عليها ، وقلبي عند ذاك يروَّع(٢)
فقلن حذارَ العين لما رأينني لها : إن هذا الأمر أمر سيشنع
فلما تجلّى الروع عنهن قلنَ لي : هلمّ ! فما عنها لك اليوم مَدفع !
فظلت بمرأى شائق وبمسمع ألا حبذا مرأى هناك ومسمع !!

إن فتى البادية يقلد هؤلاء الحضريين ، فهو يطاوع أصحاب اللهو والبطالة ، لا يبالي بمن يلومه وينهاه . وهو يملأ عينيه من جمال الفتيات ، ينازلهن ويحادثهن ليعود إلى داره مترنحاً يتهالك من صبابته بهن . ثم ينفتق فيدعي أنه انفرد بواحدة من بينهن قد تيقن — أو خيل لنفسه أنه يتيقن — أنها أمكنته من نفسها ، وأنها لا بد منقادة له ، فواعدها فجاءها لميعادها على رقبة من أهلها خائفاً فزعاً ، فتحدثه صاحبته بما يسكن روعه . تفديه بأهلها حين يقبل عليها ، ثم تعلل عليه فتقول : لا تخف ! ثم تبتسم له وتخافت صوتها لتعلمه أن « أهلها هجوع ، وأن الماء قد نام سامره » . فهذا شعر غفل لم يوسم بسمة امرأة بعينها قد فرغت لها نفسه ، وإنما من النساء : فاتيات مطمئنات بالحب لاهيات . وهو يتهالك في شعره تهالك « الماشي بداء يخامره » ، ثم يعود بخيلاء شبابه فيحدث نفسه أن الفتاة خاضعة له ، ثم يحاول أن ينتحل الفزع ليزعم أن الفتاة قالت له وقالت ... هذا شعر الغزلين من أهل الحضر ، لا شعر الفتى الذي

(١) عرف السحاب : أعلاه الذي يتدلى منه كعرف الفرس منهدلا
(٢) رام مكانه يريمه : تركه وغادره

كان — إذ ذاك — يتهيأ في داخله ليستوي على ذروة الشعر العربي الفني ، حتى يخيّر له شعر الشماخ والقنانين من أهل الجاهلية كامرئ القيس ، ويستجد بين يديه شعر المعاصرين كجرير والفرزدق والأخطل ! إنه إلى اليوم فتى حائر يقلد ، لم يستول على طريقته

ولم يلبث الفتى أن انتبه من غفلة على صوت جديد ونغم فني ساحر : ذلك النغم البدوي الذي يترجم عن حب صاحبه للبادية ، وعن عشقه للإبل ، فهو ينعتها نعتاً لم تسمع أذن عربي مثله . فحل من شعراء الإسلام المعاصرين ، « عُبَيْد بن حصين » الذي لقبوه « الراعي » ، و« راعي الإبل » ، لشدة شغفه بالإبل وجودة نعته لها . ويهوي « غيلان » إليه ، ويلازم شعره يرويه ويتتبعه ، ثم يصاحب هذا « الراعي النميري » حتى يكون راويته ويجعله إمامه . ولكن الفتى لم يخلق للإبل ونعتها فيقصر قلبه عليها . إنه سر البادية ، ولن تكون الإبل وحدها هي كل همه من البادية ، ولكن هكذا قدر له ، فيصحب الراعي ويجبه ويسلك معه المسالك ، ليأخذ عنه دقة العبارة عن غامض النعوت والأوصاف ، وليزداد تأملاً فيما يرى من أسرار البادية ، كتأمل « الراعي » في الإبل التي استخرج غاية أوصافها .

ولكن ... إن بين جنبي هذا الفتى قلباً يرتعد . قلب محروم ظامئ لا يبحث عن ريه . هؤلاء النساء ! أهو يبحث عنهن ليلهو بهن كما يلهو عمر بن أبي ربيعة وأشياعه ، أم يبحث بينهن عن مرسم ضائع يريد أن يجده ؟ أيقول كما قال أولاً وهو يقلد ابن أبي ربيعة ؟ ... كلا بل يقول

وبيضاً تهادى بالعشيّ كأنها   غمام الثريا الرائح المتهلّل
خِدالاً قذفن السود منهن والبُرى   على ناعم البَرْديّ بل هنّ أخدل
قصار الخطى يمشين هوناً ، كأنه   دبيب القطا ، بل هنّ في الوعث أوجل
نواعم رخمات ، كأن حديثها   جنى النحل في ماء الصفا متشلّل
رقاق الحواشي ، مشرفات صدورها   وأعجازها ، مما به اللهو ، خُذّل
أولئك لا يوفين شيئاً وعدنه   وعنهن لا يصحو الغويّ المدلّل

هذا هو ينقل إلى بداوته ! إلى رقة البادية العنيفة في رقتها . أجل هن النساء أيضاً ، ولكنه لا يتدنى ولا يتهتك ، بل يصف وهو جليد ، يقول هن بيض تهادى ، ثم يصرخ صرخة الظامئ إليهن يريد أن يروي منهن ما استطاع ، فهن الغمام في آخر اليوم يتهلل بالمطر . هكذا رآهن جملة أول ما رأى ، ثم تستقر أشواقه فيتأمل تلك الأبدان الفاتنة ، فإذا الساعد ريان ممتلئ ، وإذا الساق تامة مستوية لا غضة ولا مضطربة ، كأنها ساق البردي في نعومته ولينه بل هي أخدل وأشد امتلاء واستواء . ثم يراهن تتبعهن نفسه ، فيفارق سورة الشتاق إلى هدأة التأمل ، فيرى خطوهن كأنهن قطاً يدب على الرمل ، بل هن في مشيتهن في الرمل اللين السهل أجل مشية . كأنما يخشين أن ينهال الرمل من

تحتهنّ . ثم يدنو إليهنّ فيسمع اللحن الحلو الفاتن الذي يروي من ظمئه ، إنهُ في نفسه أحسن برداً من شهد مذابٍ في أخصر ماء وأبرده وأنقاه ، ثم يسكن ظمأه إليهنّ شيئاً فشيئاً ، فيرى كأنهنّ تنفذ في سرقلبه ، فإذا أراد منهنّ ، ما كان يجد في كلام ابن أبي ربيعة وأمثاله من الفتيان اللاهين بالحب، وجد من حديثهنّ ، بعد الإطماع ، ما يخذله ويتهاه . فتضطرب نفسه من أعماقها باليأس منهنّ بعد الأمل ، فيقول :

أولئك لا يوفينَ شيئاً وعدنهُ وعنهنّ لا يصحو الغويُّ المذلّلُ

فهذا هو البدويُّ الفنان قد عاد مرة أخرى الى البادية وأنكر لهو الحضر ورقته . ثم ينطلق بعد ذلك — وقد كسب من « الراعي النميري » دقة التأمل — يصف هذه الأرض التي يمشي عليها فيقول :

فما أمُّ أولادٍ ثَكولٌ ؟ وإنما تبوءُ بما في بطنها حين تثكلُ

يسائل : ما هي أمُّ أولادٍ ، ومع ذلك فهي لا تزال تقدمهم ، فإذا تقدمتهم امتلأت بطنها بهم كما تمتلىء الحامل، فيثقلها هذا الحمل الجديد . يعني من يموت من الناس

أمَرّتْ جنيناً في حشاً غيرَ خارجٍ فلا هو منتوجٌ ولا هو مُعجَلُ

وهذا الذي يموت، فتُخفيه في حشاها، ويعود بدفنه جنيناً ، لا هو يخرج إلى الدنيا مرة أخرى مولوداً لوقته ، ولا هي تلقيه سقطاً مُعجَلاً قبل ميعاد مولده ، بل هو أبداً جنين مستقرٌّ لن يرى نور الدنيا ثانيةً

تموتُ وتحيا حائلٌ من بناتها ومنهنّ أخرى عاقرٌ ، وهي تحملُ

ومن بناتها أرضون حوامل ، وحملها هذه القرى، تكون عامرة تارة وخراباً تارة أخرى، فالقرى تحيا إذا كانت عامرةً ، وتموت إذا صارت خراباً . ومن بناتها أرضٌ هي البيداء ، وهي عاقر لا تحمل قرى ، ولكنها تحمل الناس من البداة الذين يسكنونها وينتجعون مراتعها

تراها أمامَ الركبِ في كلّ منزلٍ ولو طالَ إيغالٌ بها وترحُّلُ

وهي بساط بعيدٌ مترامٍ لا يتناهى ، فهو أبداً أمام السفر، كلما ساروا وأوغلوا ، لم يستقبلوا إلاّ أرضاً ولا شيء إلاّ الأرض ، فهي

تُقَطِّعُ أعناقَ الركابِ، ولا ترى على السيرِ الاّ حيثُ ما تَتَنَزَّلُ

إذ كل من أراد قطعها شَقِيَ في طَيِّها حتى تكاد أعناق ركابه تنقطع، وهي هي لا تنتهي حتى تخيل إليك أنك لم ترحل فيها عن مكانك ، فكأنك ركبت من هذه الأرض راحلة شاقة صلبة لا تفارق مكانها

ولو جُعِلَ الكُورُ العلافيُّ فوقها وراكبُهُ أعيتْ به ما تُحلحلُ

فلو وضع الرحل فوق هذه الراحلة ، أي الأرض ، ثم علاه الراكب ، لأبت ولم تتحرك

من مكانها . ومع ذلك فإن راكبها لو أراد أن تتحرك به فإنهُ

يرى الموتَ إن قامت ، وإن بَرَكت بهِ ... يرى موتَهُ عن ظهرها حين ينزلُ

فإن الأرض إذا همت براكبها وارتفعت عن مكانها فذلك نذيرٌ بفناء الكون وقيام القيامة ، وإن ثبتت به لا تتحرك فإنه يرى واستيقن أن ساعة موته قد دنت لينزل عن ظهرها . وهذه هي الأرض الفنية الحية التي وصفها . فلما قارن بينها وبين الراحلة التي تُركَب لتقطع عليها مسافة الرحلة ، أتى بالدليل على ذلك وهو : أنها

تُرَى ولها ظَهرٌ وبطنٌ وذروةٌ ... وتشرب من بَرْدِ الشراب وتأكلُ

فالبطن جوفها الذي يغيب فيه كل شيء وكل حي إذا فارق الحياة القاهرة ؛ وظهرها جلدتها من الثرى والرمال ، وذروتها وسنامها هذه الجبال ، وإنها — أيضاً — لتشرب ماء الأمطار إذا نزلت عليها ، وتأكل كل ما يلج في بطنها من شيء

فهذه الأبيات في صفة الأرض ، وهذا الخيال الذي توهمها ، هو خيال الفتى المتأمل الذي بدأ يقف على مكامن الأسرار ، لينفذ إليها ، ويكشف عنها ببصيرة الشاعر الفنان المصور . وفيها سُخرية الضجر من الحياة التي لا معنى لها إلا الإجهاد الذي لا ينتهي ، وفيها قوة « ابن البادية » الذي يستطيع أن يلم شعث الأشياء المتفرقة ليستفيد من النظر إليها ، ثم يلقيها ساخراً مستخفاً لا يبالي . فما أمُّ أولادٍ نكول . . . إلا مطية لها « ظهرٌ ، وبطنٌ ، وذروةٌ ، وتشرب من برد الشراب وتأكل » ، فمصيرها مصير كل مطية ، هو الموت ، هو إقبال الفناء بالهدم والتدمير ، فمن وثق بالبقاء عليها وهي فانية فقد جهل وضلّ

ثم لا يزال الفتى ، في أشواقه وتأمله ، يقطع البيداء في الرحلة بين الديار والقبائل ، في صحراء فاتنة ساحرة ، ومَهَامِهَ مخوفة مهولة

ومَهمهٍ دَوّيّةٍ مِشكالِ ... تَقَمّسَت أعلامها في الآلِ

كأنما اعتمّت ذُرَى الجبالِ ... بالقزّ والإبريسَمِ الهلهالِ

في كلّ أمّاعٍ بعيد الجالِ ... تَسمعُ في تيهائه الأغفالِ

عن اليمينِ وعن الشمالِ ... قَصفين من هزم الأغوالِ (١)

ويرى بقر الوحش ، والثيران ، والظباء ، والنعام ، والقطا ، والجندب ، والحرابيّ ، والغراب ، والذئب ، فيرى ويسمع وينصت ويتأمل ، وتستجيش نفسه إليها صوراً من خياله القوي العنيف ، فتترك البادية وسمها عليه ، ذلك الوسم الذي لا يفارق من وُسِمَ به .

(١) المهمه : الفلاة البعيدة [illegible] . وتقمست : تقوس ثم ترتفع . والآل : السراب . والأعلام : الجبال . والقز [illegible] السراب [illegible] . بعيد الجال : بعيد الجوانب لا تدرك أطرافه . والتيهاء : التي [illegible] . والأغفال : التي لا يصيبها المطر . والأغوال جمع غول

ولكنهُ على ذلك حائر لم يجد دنياه التي رآها أول ما أومض في قلبه ذلك الضوء المتدارك الذي لم يلبث أن خمدت. إنهُ يبحث عنها في كل وجه. ويطول بحثه وفكره، وتهيأ نفسهُ مستعدةً للتلقي أعظم استعداد، إنها نفس دقيقة حساسة لا تتبلد

وجاء القدر، فيخرج الفتى هو وأخوه «مسعود» وابن عمه «أوفى» في ابتغاء إبل ضلت لهم، ويدخل على «مي» وهي تتغنى [1]. ذلك الصوت الذي يتحدر من سمعه إلى قلبه فيرسل فيه قشعريرة الإفاقة من إغماء طويل كان فيه هذا القلب. إن ألحانها قد أضاءت فيه نبراساً من النغم لن تزيده أعاصير الحياة إلا ائتلاقاً وضياء. ذلك الحديث بينها وبينه — وهي تنعت له الماء في قربته — سيزيد على مر الأيام جدة في حقيقة روحه. أي تعبير في الحياة كلها عن الفن والجمال هو أروع من هذا المنطق الرخيم، تفترّ عنهُ ثناياها كما يفترّ الفجر عن صباحه؟ أيّ فتنة في هذه الدنيا هي أنبل من حرّ هذا الوجه الأسيل المخروط المسنون الذي صقلتهُ أسحارُ البادية وآصالها؟ أيّ لذة في هذا الوجود هي أمتع من هذا الجيد المتمرد على جسد أهيف أملود يتحدّى كل قوة في كل جمال؟ أيّ متاع في هذا العالم هو أغنى من هذا الشعر الجثل الأثيث المتموّج على متنها، ينادي كل عاطفة لتضل في دياجيه الساحرة؟ أيّ دنيا هي أعمق أسراراً من هاتين العينين الصافيتين تسبح في صفائهما الروح إلى الغاية التي تُرى ولا تُدرَك؟؟

وينصرف الفتى من لقائها، وفي سمعه نغماتها، وفي عينيه صورتها، وفي قلبه هواها، وفي روحه لذة خالدة تزداد على الأيام عشقاً ونفاذاً. فلئن أشقاه الحرمان بالرحيل، فلشدّ ما أسعده أن وجدها. فهو بين اللذة والألم يتردد، ولكنه في شجو يطاربه كما يحزنهُ، ينال بأثريه في قلبه فرحة وجودها. لقد تزوّد منها نظرة وابتسامة وحديثاً. أنسته النساء وما فيهن، وصرفته إلى طيف يُلمّ به في مضجعه، ويسامره في طريقه. يناديه إذا خلا، فيأتيه جواب دعائه من أعماقه ... صوتها، ألحانها، عيناها، كل شيء رآه منها أو سمعهُ يستجيب له. ولكن القدر يمدهُ ليتلقى من «ميّ» ما هو أعظم من الفرح بها والوجد بها، فيتركه ينطوي عليها، ويتملى بها في خلوته فرحاً أن يزورها من عامه في دير أهلها كما زارها من قبل. فيرجع إلى ديار بني منقر، أمامه هذا، فيجد القوم قد ... عن منازلهم «بالوحيد»، فيقف على ديارها يسائل نفسه عن ميّ وأهلها، وكذلك يعرف الفتى منذ اليوم ما معنى الوقوف على الديار، وما لذة مساءلة الأطلال، يعرفها تجربة في قلبه، لا معرفة من شعر من سبقه. فإذا عاد إلى دياره — مؤملاً أن يعود إلى «ميّ» — فرحاً بما عرف من لذة الوقوف على أطلالها — قال:

---

(١) أنظر مقتطف نيار ١٩٤٣ ص ١٢٥ — ١٣٠

«هل تعرفُ المنزلَ « بالوحيدِ »   قفراً محاهُ أبدُ الأبيدِ ؟ »

«والدهرُ يُبلي جدَّةَ الجديدِ !! . . . . »

فإذا أتمَّ تساؤله ، وعرف لذة ما كان فيه من موقفه هناك ، أجاب نفسه فقال :

« نعمْ ! فأنتَ اليومَ كالمعمودِ   من الهوى أو شبَهُ المورودِ »

يجيب نفسه مختالاً : نعم ، ثم يصرف القول كأنه يخاطب آخر غيره فيقول له متمحماً :

نعم : لقد عرفت ، فأنت في يومك هذا كالمريض الذي هدَّه المرض فهو يتشدد من جوانبه ليستوي ، أو مثل المحموم الذي وردته حُمَّى نافض ، فتلك الحمى هي ما وجدتَ في روحك من قشعريرة الشوق والذكرى . ثم يصرخ يناديها

« يا ميُّ ! ذاتَ المبسمِ البَرُودِ   بعدَ الرقادِ ، والحشا المخضودِ »

« والمقلتينِ وبياضِ الجيـــدِ »

ولكنهُ يعود فيذكر حديثها إذ قالت له — وهي تصب الماء في قربته — تلومه على ارتكاب السفر ، وهو صغير حديث السن ، فيقول : يا ميُّ !

« أهلكتِنا باللـــومِ والتفنيد »

أهلكتنا !! عجيب هذا الفتى البدوي كيف يرقّ ويقسو ، ولكنه يعود فيعتذر لنفسه عن ملامتها وتفنيدها . مسكين ! إنهُ يخاف عليها حتى في خلوته وشعره ، فيقول : هذا عذرها ، إنها

« رأت شحوبي ، ورأت تخديدي   من مُجحِفاتِ زمنٍ مُريدِ »

« نقَّحْنَ جسمي عن نُضارِ العودِ   بعد اهتزازِ الغُصُنِ الأملودِ »

ثم يعود فيقول : كيف أعتذر لها ؟ إنها رأت هواي لها فصدَّت عني ، فيقول لها :

« لا ! بل قطعتِ الوصلَ بالصدودِ »

ألم يكن ذلك كذلك ؟ وإلاَّ فلمَ

«قد عجبتْ أختُ بني لبيدِ   وهزئتْ مني ومن مسعودِ»

وإذن فهو الصدود والإعراض بعد الوصل . أجل ! إنها أيضاً تخاف أن يكون بيني وبينها هوًى غالبٌ ، وبيِّنة ذلك أنهُ لا يمكن أن يكون سرُّ صدودها أنها

« رأت غلامي سفرٍ بعيدِ   يدَّرعان الليلَ ذا السدودِ »

« مثل ادّراعِ اليَلْمَقِ الجديدِ »

كما تدعي ، فإن هذا أمرٌ لا يوجب دهشةً ولوماً وتفنيداً ، وإذن فهو الصدود : هو الصدود يا مي !! ويبيت يعنّي النفس بعد إرادها فيه ، فهو يتهيأ لها ، ويزوّر الأحاديث في نفسه للقائها . ويومئذ تجد صدودها وإعراضها قد انقلب شوقاً وصبابة وإقبالاً على فتاها ! هكذا كان يقول ويقدِّر ، والقدر من وراء الحجب يقول : على رسلك أيها المغرور !!